

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله المعطى الوهاب، يَسِّرْ لى العمل فى هذا الكتاب، حين كان رسالة أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، لأنال درجة الماجستير، ووهبني أطيب الثمر بعد أن نوقشت فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٤٩م، ووهبها اليوم الحياة فى عالم النور كتابا سويا .

وهى بصورتها الحالية لا تختلف عن صورتها الماضية، وهى رسالة إلا قليلا جدا. فقد حرصت على الصورة القديمة، وعلى النتائج الماضية، فلم أدخل عليها غير تغييرات طفيفة لا تكاد تذكر .

وانى إذ أقدمها إلى المكتبة العربية، أرجو أن تكون لبنة فى صرح البعث العربى الجديد، والنهضة المصرية الحديثة، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض النقط التى تصلح مراكز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على "تكوين" هذه الرسالة، ورعاها فى صغرها، حتى صارت إلى ما صارت عليه، أستاذى "مصطفى السقا" الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، فله أوجه أجمل الشكر وأخلصه.

obeikandi.com

تمهيد

ظل النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم، إن لم يكن كلها، إلى الشعر وحده، مما جعل النشر غريبا على الكثير منا، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح، أو المقارب للصحة، وكان من جراء ذلك ضياع كثير من النشر الذى لعله كان يفيدنا ويفيدهم، لا فى تصور الحركة النظرية وحدها، بل الحركة الشعرية أيضا، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسائل أو أكثر من ذلك قليلا، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم.

كان هذا الصنيع منهم، مما شجعنى على اختيار هذا الموضوع والتمسك به، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث فى أمور تركها القدماء، ولم يرتدها إلا قليل من المحدثين .

ولما وقع العزم على اختيار النشر مادة للبحث، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض، لا يحتاج من الباحث إلا مجرد العرض، دون تعمق، أو نفاذ إلى بواطن الأمور. ولذلك أردت أن أضع نصب عيني مشكلة من مشاكل ذلك النشر العربى الكثيرة، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها، ليقرب الباحثون من حلها، إن لم أوفق فى الوصول إلى ذلك الحل بنفسى. ومن الطبيعى أنه ظهر لى أن أولى المشكلات فى تاريخ النشر هى نشأة النشر الفنى جملة. ولكن أردت أن أجعل المسألة أكثر تحديدا أمامى فقصرت بحثى على "نشأة الكتابة الفنية". وساعد هذا التحدد على تضيق ميدان البحث، مما يعاون على سعته، والدقة فيه، والإمعان .

وليس العنوان بغريب على الباحثين، ولكنى أحب أن ألقى عليه بعض

الأضواء، لتظهر الوجهة التي أنظر إليه منها. أما نشأة الكتابة، فقد عنيت بها ظهور الآثار النثرية المدونة، وتدرجها حتى استكمال خصائصها في الصدر الأول من تاريخها. فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب، معتبرا العصر الإسلامي والأموي عصر نشأة الكتابة الفنية. ولا يدخل في رسالتي هذه أنواع من النثر العربي، وجدت في هذا العصر، وقبله، مثل الخطب والأمثال والحوار وما إليها، لأنها ليست من الآثار الكتابية. ويجب ألا يغيب عن الذهن أني أتكلم عن عصر نشأة الكتابة، ولذلك لا تعينى فروع الكتابة الفنية التي ظهرت بعد هذا العصر، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية وما مثلها، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض، فإن ذلك لا يعنى أن يتناول ظهور جميع الأجناس البشرية، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة، كذلك لا تعينى الكتابة الفنية التي نشأت في الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر، عند نضج الآداب الإقليمية، وتخصصها بمزاياها وظواهرها. وإنما يعينى ما نشأ من الكتابة الفنية في هذا العصر الذى تعالجه رسالتي، سواء أكانت هذه الكتابة في الجزيرة العربية، أم في العراق، أم في فارس، أم في مصر، أم في الشام، أم في المغرب. ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة، لأن الأقاليم - مع إيماننا بنظرية البيئة - لم تكن قد تميزت بعد في أدبها العربي، أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح، فكتابتها نازحون إليها مع ولاتها عن عاصمة الخلافة، والأحداث مشتركة بين جميع الإمارات والعاصمة، أو متجاوبة الآثار في غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى، وهو "الفن"، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم، فى تحديد هذا اللفظ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف، وأقصد توة إلى ما أردته

منه. فأما ما أردته أنا بعبارة "الكتابة الفنية" فهي الكتابة التي لا تصدر على السليقة، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام، وإنما أردت الكتابة التي تروى صاحبها في تجويد المعنى، وتأنى في اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج محبرة مجودة، لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ، والإحساس بالجمال. ولذلك نعتُ كتابات العرب الجاهليين، وكتابات الرسول والصحابة، بأنها غير فنية، على الرغم من فصاحتها وجمالها. فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده، وإنما أقصد الجمال الذي استحدثه صانع فنان، يعرف ما يعمل، ويريده ويبحث عنه. وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التي كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية في القارئ، بما يسبغون عليها من خصائص، ثمرة لترويهم وتحبيريهم، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة، التي تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة. وأحب أن أقول إن الأناقة في الكتابة لا تلتزم الصنعة، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائي جميلا أنيقا دون ترو أو تعمل، مثله في ذلك مثل الحسنة، يغنيها جمالها عن الحلى والزينة. أما الكتابة الفنية التي أقصدها فهي مثل الحسنة التي تشعر بهذا الحسن، وتحب أن تلفت إليها الأنظار، فتبرز أجمل مواطنه، وتعالج نقائصه.

وقد تكلمت قبلي بعض الأدباء عن الكتابة أو النشر الفني، وما يحوى من فروع، ولكني تناولت في هذه الرسالة كتابة الرسائل وكتابة التاريخ. أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد في أنها من الكتابة الفنية، ولكن قد يعترض بعض الناس على كتابة التاريخ. وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب "علم التاريخ" ترجمة الدكتور العبادي بك، وإلى المقال الأول، في العدد الأول، من مجلة تاريخ العالم، التي

تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام^(١). فهناك نقاش طويل عن الكتابة التاريخية، ومكانها بين العلم والفن، وقد افترق فيها المفكرون من الناس شيعتين، ذهبت الأولى منهما إلى أن التاريخ علم، ويمثلها قول الدكتور "بيورى J. B. Bury": "التاريخ علم لا أكثر ولا أقل". ويستند هذا الفريق إلى تعريف العلم بأنه "المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة"، فيدخلون التاريخ فيها. وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن. فالعلم بالغا ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروفة اليابسة، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام، وبعث الحياة فيها. فإذا ما أحيها الخيال، فهي بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير، حتى تبرز فى الثوب اللائق بها، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا. أما ما يتصف به رجل العلم من حياد جاف، فلا محل له، ولا يمكن أن يطاق فى مقام المؤرخ الذى يعنى بشئون النفوس الحساسة، ويبلغ الأمر بالأستاذ "ترفليان" إلى أن يقول: "من كان فاقداً للانفعال والحماسة، فقلما يؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبداً". وربما كان التعريف القائل بأن "التاريخ هو التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه" خير ما يتير لنا الطريق إلى تصور التاريخ فهو تعريف صحيح، ويشير صراحة إلى أن التاريخ من الفن القصصى، أحد فروع الكتابة الفنية. أضف إلى ذلك أن التاريخ فى نشأته لم يكن علماً خالصاً فى أية أمة من الأمم، وإنما كان قصصاً تحوطها المبالغة والخرافات، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر.

وقد حاولت أن ألمّ الإمامة موجزة شاملة بنشأة هذا النوع من الكتابة عند

(١) أى عام ١٩٤٩، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة.

العرب. ولكنى مع ذلك لم أرني محتاجا إلى تتبع جميع التآليف التى ظهرت فيه، إذ هناك بعض المؤلفات التى وُجدت ولكن لم نعرث إلا على أسمائها، مثل كتاب "المثالب" لزياد بن أبيه، وكتاب "نسب الأنصار" لعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى، وهناك - فى غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها. ورأيت أنه يكفينى التعرض للنصوص الموجودة، وبخنها، ومحاولية تعرف خصائصها، لبيان حركة التطور عامة. أما الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

وأحببت فى رسالتى هذه أن أوثر الحياذ المطلق، وأن أصل إلى الحقيقة العارية، والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهنى - قبل الشروع فى البحث - من جميع معارفى السابقة عن الكتابة العربية، وحاولت جهدى ألا أتميز لفكرة سابقة، أو رأى لكاتب آخر. ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين، كى أجعل هذه النصوص نفسها هى التى توحى إلى بما أكتبه، ولا أجعل أحدا واسطة بينى وبينها، أو بالأحرى ستارا بينى وبينها، قد يحجب فيما يحجب الحقائق الناصعة، أو يلونها بما يجب من أطياف. ولكنى كنت بعد أن أستوحىها كل ما يمكننى استيجاؤه منها، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين والنقاد والمؤرخين، لأستعين بهم على إيضاح بعض النقط، أو معرفة ما لعله غاب عني. وهكذا أظنى على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدى الخاص، وأنها حاولت جهدها ألا تتأثر بأحد من الأدباء، وأن تصور الكتابة العربية الفنية فى نشأتها صورة صادقة كل الصدق، واضحة تمام الوضوح .

ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان. ولذلك خصصت أبوابا مستقلة للرسائل السياسية والدينية

والإخوانية، وراعت التقسيم الزمني في داخل هذه الأبواب، حتى يجتمع المنهجان، وتتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغربية عنها. وإن اتصلت بها بعض الاتصال. ولن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخي للكتابة الفنية عامة. فإننا عندما نراعى هذا التطور التاريخي لكل فرع على حدة، ييسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التي تشيع في كل فترة من عصر النشأة تبعاً دقيقاً شاملاً، وييسر لنا معرفة أسبابها وثمراتها معرفة واضحة ماثلة. فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة، أمكن معرفة ما ساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحثها، فنستنبط التطور التاريخي للكتابة الفنية عامة، ونتصور الخواص التي تعاقبت عليها تصوراً بارزاً صحيحاً. أضف إلى ذلك أنى اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلي والإسلامي والأموي حقبة واحدة، هي حقبة النشأة، ولذلك لا يجمل تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدحم بالخصائص، ويضيع علينا تسلسل التطور في كل فرع منها .

هذه هي المشكلة التي رأيت أن أتخذها موضوعاً لرسالتي، وهذا هو المنهج الذي أتبعه في بحثها، راجياً أن أصل، بتوفيق من الله، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .